معهد مولاي الحسن

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

23

عبد الله كنون

2269
.372
.685

2269.372.685
Gannun
Ahmad Zarruq

DATE

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073553222

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مطبعة كريماديس - شارع محمد الطريس 17 - تطوان (المغراب)

'Abdullāh Jannūn

"

1-17-55 Oficina de Distribución e Intercambio de Publicaciones

23

أحمد زروق

Aḥmad Zarrūq

أحمد زروق

اسمه ونسبه - ولادته ونشأته - طلبه للعلم ومشيخته - رحلته الى المشرق والسبب فيها - رد تقولات عنه - تلقيبه بمحتسب العلماء والاولياء - رأي ابن عجيبة فيه ومناقشة هذا الرأي - من اخذ عنه من المشايخ وثناء العلماء عليه - استقراره اخيرا في طرابلس ووفاته بها - تراثه المادي والادبي - آراؤه واقواله في السلوك والطريق

هو ابو العباس احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي عرف بزروق، احد كبار الفقهاء والصوفية المشهورين في العالم الاسلامي. نسبه في عداد قبيلة البرانس المغربية. وهو بفتح الباء وسكون الراء وضم النون. واما لقبه زروق فهو بفتح الزاي وراء مشدودة مضمومة، وقال فيه المترجم نفسه على ما نقل من كناشته «انما جائني من جهة الجد، كان ازرق العينين واكتسبه من امه، قال وكانت شريفة لكنني لم أتحقق نسبها لموت أبي، وشرف المرء انما هو سلامة دينه وحليته ومروءته، ولا شرف اكبر من تقوى الله (ان اكرمكم عند الله اتقاكم)...»

2269
.3121
685

ولد زروق يـوم الخميس 18 محرم 846 عند طلـوع الشمس، وتوفيت امه يوم السبت بعده، وابوه يوم الثلاثاء الموالي. قيل وكان والده سماه محمدا فلما توفي قبـل سابعه سمي احمد باسم والده.

وكانت جدته الفقيهة الصالحة ام البنين هي التي كفلته بعد وفاة والديه وربته تربية حسنة فحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، ثم تعلم صناعة الخرز على العادة في ابناء الفقراء فانهم يحملون على تعلم صناعة ما ليستعينوا بها على كسب معيشتهم. ويظهر ان والده لم يخلف له مالا، كما أنه لم يكن من اهـل العلم. وربما استفدنا مهنته من قول ابنه في طالعة نظمه لفصول السلمي:

يقول راجي رحمة الغفـار احمد نجـل احمد الخضّار
البرنسي الاصل ثم الفاسي المشتهر زروق بين الناس

هكذا تبث وصف الخضار في نسخـة صحيحة جيدة عندنا من هذا النظم بنقط الخاء والضاد وفي نسخة اخرى دونها صحة وجودة (الحضار) بالحاء المهملة وما نظنها الا مصحفـة:

وعلى كل حال فان مترجمنا لم يتماد في صنعة الخرازة وقد اراد الله بـه خيرا حين أهله لطلب العلم وهـو في سن السادسة عشرة كما قال: «ثم نقلني الله بعد بلوغي سادس عشر الى القراءة فقرأت الرسالة على الشيخين علي السطي وعبد الله الفخار قراءة

بحث وتحقيق والقرآن على جماعة منهم القوري والزرهوني، وكان رجلا صالحا والمجاصي والاستاذ الصغير بحرف نافع، واشتغلت بالتصوف والتوحيد فأخذت الرسالة القدسية وعقائد الطوسي على الشيخ عبد الرحمن المجدولي وهو من تلاميذ الابي وبعض التنوير على القوري وسمعت عليه البخاري كثيرا وتفقهت عليه في كل أحكام عبد الحق الصغري وجامع الترمذي وصحبت جماعة من المباركين لا تحصى كثرة بين فقيه وفقير».

هذه نشأة زروق الاولى وتربيته البيتية والعلمية التي تشبه الى حد ما تربية صديقه وقرينه ابن غازي، فان كلا منهما نشأ في حضن امرأة صالحة عملت على توجيهه توجيها نافعا ظهر اثره في سيرته المثالية وحياته العلمية الناجحة. ولقد كانت والدة ابن غازي تكفل ولدها من الناحية التربوية فقط، اما الناحية المادية فوالده كان كفيلا بها، في حين ان جدة زروق كانت تكفل حفيدها من الناحيتين التربوية والمادية معا؛ لان والده لم يترك له ثروة يعيش بها، ولذلك حملته على تعلم الصنعة بعض حفظ القرآن الكريم، ثم ما لبث ان عاد سيرة جدته من طلب العلم والتفقه في الدين، وكانت جدته كما علمت فقيهة صالحة وبذلك تعلم ما للمرأة المتعلمة من الاثر القوي في اصلاح المجتمع وتقويم خلق النشء حتى قيل: الام هي المدرسة الاولى.

ثم إن هؤلاء الاعلام الذين ذكرهم المترجم هم مشيخته الذين اخذ عنهم بفاس في اول أمره، وقد اخذ عن غيرهم بعد ذلك بها وبغيرها من مدن المشرق والمغرب لانه كان كثير التجول في البلاد الاسلامية وحج وجاور بالمدينة المنورة واقام بمصر زمنا للافادة والاستفادة فاخذ عن اعلامها الكبار واخذ عنه كثير ممن يشار اليه من اهلها. وممن سمى من شيوخه بين مغاربة وافارقة ومصريين غير من ذكر؛ العلامة السراج الصغير واحمد بن سعيد الحباك وابو مهدي عيسى الماواسي وعبد الرحمن الثعالبي وابراهيم التازي والمشذالي وحلولو والرصاع والسنوسي وابن زكري التلمساني والتنسي ونور الدين السنهوري والحافظان السخاوي والديمي وابو العباس ابن عقبة الحضرمي وشهاب الدين الإبشيطي وهما من مشايخ الصوفية والاول هو عمدته في طريق السلوك.

وقد ذكر ابن غازي في فهرسته ان المترجم استجاز له بمصر الحافظين السخاوي والديمي فاجازاه وذلك سنة 885.

ومنه تعلم ان رحلته كانت علمية وانه كان على صلة باصدقائه وزملائه في المغرب أثناءها، يكاتبهم ويمكن للعلاقات الادبية بينهم وبين علماء المشرق. وقد شملت الاجازة التي طلبها لابن غازي من حافظي مصر المذكورين، غير ابن غازي من مشائخه

واقرانه كابي مهدي الماواسي وابي العباس الونشريسي وقاضي الجماعة محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي، فماذا تبتغي من نشاط علمي اكثر من هذا؟...

ولكن القوم الذين اصطدم بهم في حياته وانكر عليهم كثيرا من الاحوال التي لا يقرها الشرع ابوا الا ان يصوروا رحلته بصورة قاتمة ويخرجوه من المغرب في صفة طريد لا يقر له قرار الى ان يتراجع عن انكاره ويسلم قياده الى رجل من اهل التصرف في الغيب فيدخل في جواره ويامن حينئذ على نفسه. وهاك نص الحكاية على ما عند ابن عسكر في الدوحة قال:

«حدثني شيخنا ابو الحجاج يوسف بن عيسى وغيره ان الشيخ ابا العباس (يعني صاحب الترجمة) صحب الشيخ ابا عبد الله محمد الزيتوني، وكان رجلا أعمى، وكان من رجال التصريف فتوغل صاحب الترجمة في محبته وادعى فيها قصب السبق فكان من امتحانه في ذلك ان جاء زائراً له فدق الباب عليه فسمع صوتا بالاذن فدخل الدار فلم يجد احدا فصعد الى غرفة في اعلى الدار فوجد الشيخ جالسا في وسط الغرفة وعن يمينه امرأة متزينة وعن يساره اخرى وهو يلتفت الى هذه ويقبلها ويقبل عليها ويرجع الى الاخرى كذلك فقال ابو العباس ان هذا الرجل من الزنادقة وولى راجعا

فناداه الشيخ الزيتوني: يا احمد الكذاب! ارجع! فرجع مسرعا فلم يجد معه احداً. فعلم انه امتحنه فقال له الشيخ الزيتوني اما التي رأيت عن يميني فهي الآخرة واما التي عن يساري فهي الدنيا، وانت كاذب في دعواك ولكنك لا تبقى في المغرب ساعة واحدة. فخرج الشيخ ابو العباس من حينه وتوجه الى المشرق مشفقا على نفسه مما اتفق له حتى انتهى الى الديار المصرية فوجد اصحاب الشيخ احمد بن عقبة الحضرمي ينتظرونه على ضفة النيل لان شيخهم المذكور امرهم بذلك واخبرهم بقدومه، فسلموا عليه ورحبوا به وحملوه معهم. فلما دخل على الشيخ ابن عقبة وسلم عليه قال له: يا احمد! يا ولدي! ما جرأك على الافعى العمياء؟ واني لمشفق عليك منه ها هنا! فحمله الى بيت عنده وامره بلزوم الذكر فبعد ثلاثة أيام سمع الشيخ ابن عقبة رجة عظيمة وهو مع أصحابه فصاح: «الله!» ورفع يده ثم قال: قوموا بنا الى صاحبكم فقاموا اليه فوجدوا البيت الذي كان فيه ابو العباس قد صار دكا فقال ابن عقبة احفروا على صاحبكم فحفروا عليه الى ان وجدوه في ركن البيت وقد طاحت الخشب فخيمت عليه فرفع عنه الردم وقد انجاه الله منه. فلما ابصره الشيخ ابن عقبة قال له: «الحمد لله الذي عصمك منه! يا أحمد! هذه اخر عقوبة الزيتوني ولقد ضربك ضربة من

اقصى المغرب فدفعتها عنك بيدي، وها هي مكسورة من ضربته» واخرجها من تحته مكسورة. ثم لازمه الى ان انفصل عنه فقال له: «اوصني يا سيدي!» فقال له منشداً:

سلم لسلمى وسر حيث سارت
واتبع رياح القضا ودر حيث دارت

وقد حكى هذه القصة غير ابن عسكر وزاد فيها بعضهم انه لما خرج من عند شيخه الزيتوني ألقى عليه شبه اليهود فصار الناس يتجنبونه ولا يرون فيه الا يهوديا حتى شفع له بعض أحبابه عند الشيخ فعفا عنه بشرط ان يخرج من المغرب.

ونحن لا نرى في هذه الحكاية الا تنقيصا من قدر زروق لتوطيد اركان التدجيل الذي كان يحاربه، ومن ثم كانت نهايتها (سلم لسلمى) والا فالرجل رحل لطلب العلم وللاخذ عن الشيوخ كما رحل ويرحل كثير غيره من علماء المغرب وطلبته. وقد استجاز الاكابر لنفسه ولغيره من مشائخه وأقرانه على ما سبقت الاشارة اليه، وقال ابن العماد انه اقام بمصر سنة واشتغل فيها بالعربية والاصول على الجوجري وغيره واخذ الحديث عن السخاوي ثم غلب عليه التصوف، فميله الى التصوف متأخر عن اشتغاله بالعلم حتى في مصر بعد رحلته. ولو كان جاء اليها طريدا بالصفة التي

ذكروها لما بقي له في الاشتغال بالعربية والاصول مأرب، ولا في استجازة مشايخ الحديث له ولغيره من علماء المغرب مطلب، وعلى كل حال فان التزيد في هذه الحكاية ظاهر وهي ان كان لها اصل فهو ما يتوافق مع روح زروق العلمية من الانكار على اهل الدعاوي الباطلة وتحكيم الاصول فيما يعرض من احوال اهل الطريق. ولعل زروقا وقع له مع شيخه الزيتوني خلاف من هذا القبيل فنسج خيال المخرفين حوله هذه القصة.

وان مما يزيدها بطلانا ان زروقا لم يتراجع قط عن انكاره على المدعين ولم يزدد الا حسبة في محاججة المبطلين. ولقد عاد من رحلته هذه الى فاس فكان اول ما بدأ به مستقبليه من اهل العلم الانكار عليهم فيما يتناولونه من أسباب العيش، ولو كان خرج من فاس بسبب الانكار تلك الخرجة المنكرة واوصاه شيخه الحضرمي في آخر ما اوصاه به، بالتسليم لسلمى لكان حريا ان يسكت وان يغض الطرف على القذى مهما كان الامر. ولكن الامر بالعكس فان الرجل خرج ليتملأ بالعلم وليتقوى في الدين فلم ينكص على عقبيه في علم ولا عمل. وهذه حكايته مع علماء فاس على ما عند ابن عسكر ايضا وعنه رواها غيره قال: «حدثني الفقيه القاضي ابو عبد الله الكراسي الاندلسي قال: «لما قدم الشيخ زروق

قافلا من البلاد المشرقية خرج الفقهاء الى لقائه قال وانا كنت في جملة من خرج معهم فلما سلمنا عليه وجلسنا في خبائه صار يسأل الفقهاء عن أسباب اقواتهم فقال بعضهم معظم القوت من الاوقاف المحبسة على قبور الموتى! فقال الشيخ: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم! تعيشون من لحوم الموتى!! فاجابه الفقيه ابن الحباك بان قال يا سيدي الحمد لله الذي جعلنا نقتنص من لحوم الموتى وهي مسوغة عند الضرورة في الشريعة ولم يجعلنا نقتنص من لحوم الاحياء الممنوعة من كل وجه! فصاح الشيخ مغشيا عليه. فخرجنا عنه وتركناه كذلك...»

فانت تراه كيف سألهم عن أسباب عيشهم اهتماما بالاصل الاصيل في سلامة الدين وهو اكل الحلال ولما اخبروه بادرهم بالانكار على ما رضوا به من العيش على الصدقات ثم لما اجابوه وكان للجواب وجه من الشرع لم يتمالك ان اخذته حال من الخشية اتهاما لنفسه على عادة اهل المواجد من محققي الصوفية. وهكذا يكون زروق في كلا حاليه؛ حال الانكار وحال التسليم موافقا للشرع عاملا بمقتضى العلم الذي جمله له به.

ومن ثم اطلق عليه علماؤنا رحمهم الله «محتسب العلماء والاولياء» وهي صفة جليلة ضخمة لم يظفر بها غيره من علماء

الاسلام لا فيما قبله ولا فيما بعده. وانما المحتسب القائم بالحبسة ذلك الوظيف الشرعي الممتاز الذي يعم اختصاصه ويشمل كل الوظائف الشرعية حتى الخلافة العظمى والقضاء! اليست مهمته هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ويقول علماؤنا رحمهم الله ان المحتسب اذا مر بباب الامير او القاضي ووجد الناس مجتمعين حوله يتنظرون خروجه، فان عليه ان يدخل اليه ويخرجه للناس لان تركهم يتنظرون من المنكر وخروجه اليهم من المعروف. فيد المحتسب اذن مبسوطة على كل ذي منصب شرعي كبر شأنه او صغر عظم او حقر، ولا يد أعظم منها بهذا الاعتبار الا يد زروق التي بسطها علماؤنا على صفوة الصفوة من أهل الاسلام باطلاقهم عليه «محتسب العلماء والاولياء» وذلك لما رأوه متتبعا لاقوالهم واعمالهم وازنا لها بميزان الشرع فيصحح منها ما صح ويبطل ما بطل، ولما تحققوا من رسوخ قدمه في الفقه وعلومقامه في التصوف من غير ان يحيف فقهه على تصوفه، فينكر المقامات والاحوال أو يطغى تصوفه على فقهه فيهمل الشعائر والرسوم. على ان هذه التحلية لم ترق فيما يظهر بعض ايمة الصوفية، فهذا الشيخ احمد بن عجيبة يقول في اول شرحه لنونية العارف الششتري: «وقد سبق الى شرحها الشيخ العلامة الصوفي ابو العباس سيدي احمد زروق رضي

الله عنه، اقتصر فيه على حل الفاظها وبيان ما تعلق ببعض معانيها غير انه لم يغص في تيار بحر أسرارها على غوامض انوارها ولافض خاتم إسراها ولا دخل بعرائس ابكارها، ولعله شرحها قبل ان يفتح عليه في اسرار الحقيقة فقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه يقول ما فتح على الشيخ زروق الا في آخر عمره اي بحيث لم يؤلف شيئا بعد الفتح والله اعلم، وكتبه شاهدة بذلك اذ الكلام وصف المتكلم ومن تكلم عرف من ساعته فهو في علوم الطريقة امام، واما في علوم الحقيقة واسرار الاذواق فلم ينل منها شيئا الا في آخر عمره كاد ان يخرج منها صفر اليدين، ولذلك كثر اعتراضه على اهل النسبة وظهر في كلامه التشديد والتضييق عليهم. ولقد رأيته في نوم كاليقظة فقلت له قد شددت على اهل النسبة في حقيقة المريد فقال وما قلت فيها فقلت له قلت كذا وكذا وذكرت له بعض ما انتقد به عليهم وما شدد فيه فقال ذلك الذي يناسب مذهب مالك فقلت له الصوفي الحقيقي لا يقلد مالكا ولا غيره بل ياخذ الشريعة من اصلها والحقيقة من معدنها فقال من بلغ هذا او صحب من بلغ هذا لا يتكلم معه فقلت له والله لقد بلغناه وصحبنا من بلغه فغاب عني. وكان بعض مشايخنا من الفقهاء يقول الشيخ زروق محتسب الصوفية قلت انما يكون

محتسب صوفية اهل الظاهر اهل العبادة الظاهـرة والتنسك الظاهر اما اهل التربية والسر الباطن فلا حسبة له عليهم اذ لم يحط علما بما عندهم ولقد سمعت شيخ مشائخ التربية في زمانه مولاي العربي الدرقاوي الحسني رضي الله عنه يقول الشيخ زروق عند اهل الظاهر شيء كبير وعند اهل الباطن شيء صغير:

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابـة الا من يعـانيهـا

ومراتب الاولياء كطبقات الجنان الاعلى يعرف الاسفل دون العكس والله اعلم».

هذا كلام ابن عجيبة في زروق ورأيه بخصوص اللقب الذي اطلقه عليـه العلماء، ونحن لا نخوض في الرد عليـه ولا في ابطال ما ذهب اليه ولنعط الكلمة لزروق فانـه اولى بالدفاع عن نفسه. واليك ما قاله في هذا الصدد بآخر شرحه لحزب البحر في التنبيه الرابع:

«قد اولع كثير من فقراء الوقت بعلوم الاسرار ودقائق الاذواق ورقيق كلام القوم دون اعتناء باحكام العبودية وآداب الربوبيـة فانصرفوا عن المراد، وفارقوا موجبات الوداد، وحصل لهم التعريف في عين ادعاء السداد. ومنهم من تسري فيه لذة فهم الكلام فيظنه ذوقا وربما ادعاه حالا لنفسه فكان طردا، فحق الصادق أن يشتغل

بما به كماله من التخلق والتعلق مع الإعراض عن الاغراض. قال ابن عطاء الله في الحكم «تشوفك الى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك الى ما حجب عنك من الغيوب» وقد قالوا اذا تكلم المريد في مقام لم يبلغه حاله حرم مناله اذ صار فيه صاحب علم ثم لا يامن ضلاله به اوان يتيه في بعض رموزه ان كان ياخذه من كلام الناس» الخ.

على ان ابن عجيبة بكثرة ما ينقل من كلام زروق في شرح النونية وغيره، يبرهن على انه لا غنى له عن الاغتراف من بحره، وان ما قاله فيه انما هو شطحة من شطحات الصوفية صدرت منه لما رأى شدة انكار زروق على اهل الطريق او هو مدح لشرحه على ما جرت به عادة المؤلفين من تنكيت المتأخر على المتقدم كما قال ابن مالك في الفيته: فائقة الفية ابن معط
فجاء السيوطي بعده فقال: فائقة الفية ابن مالك

والواقع انه لم يكن لكلام ابن عجيبة اثر في الاوساط العلمية بالنسبة لاطلاق هذا اللقب على زروق، فما زال علماؤنا رحمهم الله، وجلهم ان لم نقل كلهم ممن لهم جنوح الى التصوف وتعلق بسبب منه، يحلونه بتلك التحلية ويصفونه بتلك الصفة. وانما قلنا ان جلهم او كلهم ممن ينتمي الى التصوف لان المعروف عن

اهل القرن العاشر فمن بعده انهم مالوا بكليتهم الى سلوك الطريق، ومن لم يمل منهم الى ذلك بالقلب والقالب فلابد من ان يظهر هذا الميل، مداراة عن نفسه لما صار للطرق من الصولة والجاه وعظم النفوذ، ولهذا قل ان قام في العصور المتأخرة ناقد صوفي من طراز زروق حتى انبلج فجر النهضة الحديثة.

والمقصود ان هؤلاء العلماء المتصوفين هم الذين لقبوا زروقا بمحتسب العلماء والاولياء فلا يقدح في ذلك من شذ عنهم.

وقد تورَّك ابن عجيبة على زروق في شرح النونية مرة اخرى عند نقله سانحة من سوانحه فقال: «وانما تعطل الفتح على الشيخ زروق لقلة صحبته لشيخه الحضرمي فقد قال عن نفسه انه صحبه اولا سبعة اشهر او نحوها ثم انفصل عنه ثم رجع لزيارته فبقي معه نحو ثمانية اشهر فكان المجموع من صحبته خمسة عشر شهرا او نحوها. قال وانتفعت بها انتفاعا لا يخفى هـ. قلت هذه المدة لا تسلخ تلميذ عن طبعه بالكلية ولا تخرجه عن علمه وعوالمه لا سيما وقد كان متغلغلا في العلوم النقلية والعقلية فلا يسلخه منها الا طول الصحبة بالصدق والخدمة والتجرد التام كما هو مجرب في شأن امثاله. وقد كان شيخه يكاتبه بشيء من الحقائق فلم يهتد اليها لانها لا اوخذ بمجرد العلم وانما توخذ بالسراية مع تحقق الصدق والتصديق.

واعلم ان كثيرا من العلماء صحبوا المشائخ العارفين ولم ينالوا من حقائقهم شيئا لانهم كانوا يصحبونهم على نظر نفوسهم لا على نظر المشائخ فاذا أمروهم بشيء او نهوهم عن شيء وزنوه بميزان (شريعتهم) فما وافق نظرهم قبلوه وما خالفه ردوه فبقوا مع انفسهم ولم يغرقوا في بحر اسرارهم والله اعلم».

انتهى كلام ابن عجيبة، وفيه تحامل كبير على زروق وعلى علماء الاسلام جملة وهو كلام لو لم يختم بجملة والله اعلم لكان فيه درك عظيم على قائله. ويهمنا منه الآن ما يتعلق بزروق فقد زعم انه تعطل عليه انفتح اخذاً من السانحة التي أوردها له وهي كما تاتينا في اعقاب ترجمته انما تدل على الجهود التي بذلها زروق في الوصول الى المعرفة ولا دلالة لها مطلقا على ما فهمه منها ابن عجيبة. وتعليله لتأخر الفتح بقلة مدة الصحبة ليس بحجة عندهم، فقد عهدناهم يقولون ان فلانا نال من فلان بمجرد لقاء قصير او بنظرة واحدة، وكثيرا ما يمثلون ذلك بمن جاء بفتيلة منعمة دهنا فاقتبس من المصباح واشرق نوره في الحال. وكون التغلغل في العلوم النقلية والعقلية عقبة في طريق الفتح هو مما يختلف فيه نظرنا مع ابن عجيبة وامثاله ممن يقولون بهذا القول، فنحن لا نرى فتحا حقيقيا حصل او يحصل لاحد الا مع هذا التغلغل في

العلوم. واليك المثال في اقطاب الصوفية انفسهم كالجيلاني والحاتمي وابن الفارض وابن سبعين وغيرهم ممن لم يشتهر امرهم في هذا الشأن حتى رسخ قدمهم في العلوم. وابن عجيبة نفسه لو لم يكن ذا باع مديد في العلوم لما ادرك ما ادرك من هذا المقام.

وقد كان زروق ذا حساسية مرهفة وتذوق لكلام القوم يشهد به تنزيله للنصوص وتعقبه لما فيها من مآخذ وطرحه للحشو واهتباله بالجواهر دون الاعراض فضلا عن وزنه للخواطر بميزان الشرع واخذه بالحيطة في مجال القول والعمل وانما اعانه على ذلك تمكنه من العلوم العقلية والنقلية وسلوكه للطريق سلوك الحذر اليقظ الذي اخذ الاهبة لكل طارئ، واستعد لكل ما يفاجئ، فلم يكن وصوله للحقيقة عن ظن وتخمين، بل عن طريق المعرفة واليقين، ولعمري ان هذا لهو الفتح المبين.

فان يكن المهدي من بان هديه فهذا؛ والا فالهدى ذا، فما المهدي؟

وبعد هذا لا نرى داعيا لذكر ما كان لزروق وما لا يزال له من مقام كبير بين طوائف الصوفية وخاصة الشاذلية منهم فقد اقامه الجميع مقام الحكم الذي ترضى حكومته واقروا له بالامامة وأثنوا عليه الثناء العاطر وتداولوا عهده وتلقوا كلامه بالقبول ورووا وظيفته، وهي كلها اذكار نبوية، كابراً عن كابر، وهذا فضلا

عن مشائخ العلماء وكبار الفقهاء الذين اخذوا عنه بالمشرق والمغرب.

فمنهم الامام القسطلاني والحطاب الكبير والخروبي الصغير وشمس الدين وناصر الدين اللقانيان وزين الدين القسنطيني نزيل مكة والشيخ عبد الوهاب الشعرانى والعارف ابو الحسن البكري وهما من عمد اهل التصوف وغيرهم. وذكره وارد في سند الطريق في مرآة المحاسن وغيرها.

وذكر صاحب طبقات الشاذلية المسماة بجامع الكرامات انه لما قدم مصر وسمعت بقدومه العلماء والفضلاء من اهلها وفدوا عليه، ومثلوا بين يديه، وكان يحضر درسه في الازهر الشريف زهاء ستة آلاف نفس من مصر والقاهرة واحوازها وتولى امامة المالكية وصار استاذ رواقهم ونصبوا له كرسيا عالي الاركان بديع الاتقان صار يجلس عليه للافادة. قال: وهذا الكرسي موجود الى وقتنا هذا برواق السادة المغاربة بالازهر الشريف. وكانت له صولة ودولة عند امراء المصريين والقبول التام عند الخاص منهم والعام.

ولعل هذا في غير القدمة الاولى التي قدمها الى مصر وكان فيها لا يزال بصدد الاخذ عن اعلامها. يدل عليه قول السخاوي في الضوء اللامع بعد ان ذكر نشأته وقرائته بفاس: «وارتحل الى الديار المصرية فحج وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو سنة مديما للاشتغال،

وقرأ عليَّ بلوغ المرام وبحث عليَّ في الاصطلاح بقرائته ولازمني في أشياء وافادني جماعة من اهل بلاده والغالب عليه التصوف.. وقد تجرد وساح وورد القاهرة بعد الثمانين ثم تكرر دخوله اليها ولقيني بمكة في سنة اربع وتسعين وصار له اتباع ومحبون وكتب على حكم ابن عطاء الله» الخ.

وفي شذرات الذهب قال المناوي في طبقاته وهو يعني زروقا: «عابد من بحر العبر يغترف، وعالم بالولاية متصف، تحلى بعقود القناعة والعفاف، وبرع في معرفة الفقه والتصوف والاصول والخلاف، خطبته الدنيا فخاطب سواها، وعرضت عليه المناصب فردها وأباها، وهذا مما يؤيد ما قاله صاحب طبقات الشاذلية عما كان له في مصر من نفوذ وجاه عند خاصتها وعامتها.

ثم انه زهد في ذلك كله ورحل الى قطر طرابلس واستقر منه بمصراته بجهة تيكران منها حتى مات. قال ابن غلبون في تاريخه: «وكان استوطنها وانخرط في سلك اهلها وتزوج بها من اولاد الشيخ الجعافرة وولد له منها وبقوا بعد موته ثم لحقوا به، وليس له بها نسل ومقامه مشهور. وتولى خدمته واوقافه قوم من اهل سرت كانوا في سالف الزمن لهم تشبه بالصالحين ونشأ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات» الخ.

وقد زار الشيخ ابو سالم العياشي مقام المترجم في طريقه الى الحج وتحدث عن ذلك في رحلته بقوله: «ومن الغد ارتحلنا ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق العالم العلامة العارف بالله الدال على الله صاحب العلمين ومحقق النظرين ومحصل المذهبين ومرتضي الفريقين مقتدى اهل العلم الباطن ومتبوع اهل الظاهر وينبوع الاسرار في سائر المظاهر قطب مغربنا وامام ايمتنا سيدي ابي العباس احمد بن احمد زروق البرنسي الفاسي حقق الله اليه نسبتنا وخلص في محبته سريرتنا آمين. وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من ادب ووقار وذل وانكسار وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع وهو الذي كان يصلى فيه الشيخ وخطب امام المسجد من ورقة وليته احسن القراءة منها فانه كان يتوقف حتى في آيات من القرآن العظيم واسفت لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيف يسند الامر فيه الى غير اهله، ويوضع في غير محله ولله الامر من قبل ومن بعد».

ثم ذكر العياشي بعد ذلك ما يفيد ان الشيخ رحمه الله لم يكن هو باني الزواية على ما اخبره به قيمها ابو العباس احمد بن عبد الرحيم خديم الشيخ قال:

«(لطيفة) وقد اخبرني سيدي ابو العباس المذكور ان جده الاعلى

سيدي احمد الذي كان خديم الشيخ قال للشيخ في حياته الا نبني هنا زاوية ونتخذ لها اوقافا؟ فقال له يا أحمد نحن لا تفوح رائحة مسكنا الا بعدما نتسوس تحت التراب. ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الارض ومغاربها بنى تلميذه المذكور المسجد بازاء قبره وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة».

قلت وهذا هو اللائق بعلم الشيخ وعمله وتمسكه بالسنة قولا وفعلا واعتقادا فرحمه الله ورضي عنه وجازاه عن ايمانه واخلاصه الجزاء الاوفى.

وكانت وفاته سنة 899 في صفر. وذكر العياشي ايضا انه وقف على ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعدد ورثته فساقها باللفظ قال «لما اشتملت عليه من الفوائد، منها استفادة عدد اولاده واين استوطنوا بعده فاني لم اجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه. ومنها التأسى به في قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا اولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش ولا يعوزه ما يخلفه لهم لو شاء لانتشار صيته وخدمة الدنيا واهلها له ومع ذلك لم يخلف الا ما ستراه» وخلاصة ما في هذه الورقة انه توفي عن زوجتين واربعة اولاد كل منهم يسمى احمد ويتميز بكنية وبنت واحدة اسمها. عائشة وخلف نصف فرس وكانت شركة مع الغير وبرنسا ابيض وجبة صوف وثوبا

آخر وسبحة كانت لشيخه الحضرمي وأربعة عشر سفراً وكناشة الخ فانظرها ان شئت في الرحلة العياشية.

هذا هو تراث زروق المادي فليخجل عند ذكره كل شيخ يزعم التصوف وهو اغنى من قارون! اما تراثه الادبي فمجموعة من الكتب في الفقه والتصوف مؤسسة القواعد محررة المقاصد يميل فيها إلى الاختصار لكونه ممن الغى فضول القول، وياتي فيها باللباب من العلم الذي يتناوله لانه كان انصح من ان يشغل قارئه بالقشور، وليس قارئه الا طالبا متفقها في الدين او مريدا مترقيا في مقامات اليقين ولا أحق بالنصح منهما.

واليك حلقات هذه السلسلة الذهبية قبل ان ناتي بشذرات منها تقر اعين الناظرين. ولعل الشيخ احمد بابا في نيل الابتهاج كان احصى لمؤلفاته من غيره فلنعتمد قوله في هذا الصدد ونصه: «واما تآليفه فكثيرة يميل فيها الى الاختصار مع التحرير ولا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة وتحقيقات مفيدة لا سيما في التصوف فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه. فمنها شرحان على الرسالة وشرح ارشاد ابن عسكر وشرح مختصر خليل وشرح الوغليسية وشرح القرطبية وشرح الغافقية وشرح العقيدة القدسية للغرالي ونيف وعشرون شرحا على الحكم وشرحان على حزب البحر

وشرح الحزب الكبير لابي الحسن الشاذلي وشرح مشكلاته وشرح الحقائق والدقائق للمقـري وشرح قطع الششتـري وشرح الاسماء الحسنى وشرح المراصد فـي التصوف لشيخه ابن عقبـة والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافيـة ومختصره واعانـة المتوجه المكين على طريق الفتح والتمكين وكتاب القواعد في التصوف، وهذه الثلاثة في غايـة النبل والحسن، لا سيمـا الاخير منها لا نظيـر له. وكتاب النصح الانفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة وكتاب عدة المريد الصادق من اسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت كتاب جليل فيه مائـة فصل بين فيـه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية. وله تعليق على البخاري قدر عشرين كراسة اقتصر فيه على ضبط الالفاظ وتفسيرهـا، وجزء صغير في علم الحديث. وله رسائل كثيرة لاصحابه مشتملة على حكم ومواعظ وآداب ولطائف التصوف مع الاختصار قل ان توجد لغيره. وبالجملة فقدره فوق ما يذكر ومن تفرغ لذكر حالـه وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلدا . . وهو آخر ائمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة» .

ويزاد على ما ذكره كناشته التي تعد من أحفـل كتبه بالفوائد التاريخية وكثيرا ما ينقـل عنها الشيخ احمد بَابَـا نفسه

وغيره وتقدم ذكرها في زمام تركته. وله فهرست ذكرها ابن القاضي في ترجمته من درة الحجال وله ايضا مما وقفت عليه ولم يذكره رسالة الاصول البديعة والجوامع الرفيعة ورسالة في اصول الطريق نظمها الشيخ ابو سالم العياشي وشرحها تلميذه الخروبي ونظم فصول السُّلَمي في عيوب النفس وشرح المباحث الاصلية وكتاب لم يسم في علاج ادواء القلب الى غير ذلك. وكتبه وان كانت كلها محررة مفيدة الا ان عيونها هي الثلاثة التي ذكرها صاحب نيل الابتهاج ويزاد عليها كتاب عدة المريد الذي لا نظير له في النَّضْح عن التصوف والدَّفع في وجوه ادعيائه بالحجة والبرهان. وهو في نظرنا عديل كتاب تلبيس ابليس لابن الجوزي وربما فاقه لاختصاصه بهذا العلم ولمكانة صاحبه عند المتصوفة انفسهم فلا يمكن ان يقدحوا فيه بما يقدحون به في تلبيس ابليس وانظر ما قاله اليوسي في المحاضرات بصدد الانكار على اهل الوقت فانه لم يجوزه الا للراسخ في العلم والعمل والانصاف كمترجمنا وهذا نص كلامه مختصرا:

«واما استنقاص اهل الزمان على ما مر فلاشك انه لا يحرم اذ لا يدخل في الغيبة المحرمة حيث لا يكون التعيين... نعم ذكر ما يقع منهم من المناكر بالتنصيص بقصد الاحتراز مع الانصاف كما

فعل ابو العباس زروق رضي الله عنه في النصح الانفع وفي عدة المريد نافع مفيد غير انه صعب مفتقر الى تحقيق المدارك وتضلع في العلوم وتجربة تامة» الخ. وناهيك بها من مثل اليوسي.

وهـا نحن اولا نستعرض من كتابه المذكور بعض الفصول للتعريف بقيمته ولتتمة التعريف بمؤلفـه أيضا. وقد صدره بكلمـة لبيان الغرض من تأليفه هذا نصها:

«ليعلم الناظر في هذا الكتاب، المتأمل لما فيه من حق وصواب، انا لم نقصد به الطعن على الناس ولا القدح فيهم، ولا الاشتغال بمساويهم ولا اظهار عيوبهم، ولا اردنا الاستظهار بالمزية عليهم، وانما قصدنا به التحذيـر من الوقوع فيما حذرنا منه، والتحرير لما نبهنا عليه، ليكون عدة للصادق في دينه، واعانة للمحقق في يقينـه، ورحمة للمسكين في حاله، فمن قصده لشيء مما قصدناه به فالله المسؤول في اعانته ونفعـه، ومن قصده لغيـر ذلك فالله المستعـان على اتلافه ومنعه، وان يعمي عنه من يريد به هتك أستـار الناس، ويريد به اظهـار واللبس الالتبـاس، ومن قصده لذلك فالله حسيبه وسائله ومتولي الانتقام منه لان من تتبع عورة اخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته، والمومن يلتمس المعاذير والمنافق يتتبع العيوب، والله في عون العبد ما دام العبد في عون اخيه.

ويعلم الله لولا الشفقة على الاخوان الصادقين ما كتبت منه حرفا مع ما أخذ على من علم شيئا ان يبينه ولا يكتمه، وما ورد من الوعيد في سكوت العالم عند ظهور البدع مع ما انضم الى ذلك من أسباب خاصة وعامة. وعلى الله المعتمد في عموم النفع به وان يجعله رحمة وبركة حيث ما حل.

ثم ارغب لمن كتبه ان يكتب هذه المقدمة في ضمن نسخته لنبرأ من جهل الجاهلين وعلى الله ثوابه».

ولسنا بحاجة الى التنبيه على ما يفيض به هذا التصدير من من روح الانصاف والنصيحة والاخلاص، فتلك شيمة زروق التي عرف بها في كتبه وابحاثه وآرائه بعامة. وهاك الآن الفصل الاول من الكتاب وهو في تحقيق معنى البدعة وتقسيمها قال:

«(فصل) في حقيقة البدعة وخواصها واحكامها. اما حقيقة البدعة فشرعا احداث امر في الدين يشبه ان يكون منه سواء كان بالصورة او بالحقيقة لقول رسول الله صلى عليه وسلم من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد وقوله عليه السلام كل محدثة بدعة كما تقدم. وقد بين العلماء رضي الله عنهم ان المعنى في الحديثين المذكورين راجع لتغيير الحكم باعتقاد ما ليس بقربة قربة، لا مطلق الاحداث اذ قد تتناوله الشريعة بأصولها فيكون راجعا

اليها او بفروعها فيكون مقيسا عليها قالوا: وبحسب هذا فلا تكون البدعة الا محرمة او مكروهة لانها ان قويت شبهتها لا يصح ان يبلغ بها التحريم وان ضعفت شبهتها جدا كانت محرمة لا سيما ان كانت في مقابلة منصوص عن الشارع او مخالفة لاصل الملة او خارجة عن قواعد الاحكام الشرعية. قال المحققون وانما قسمها بعضهم لاقسام الشريعة اعتبارا بمطلق الاحداث ومن حيث اللغة ومنه قول عمر رضي الله عنه في شأن التراويح: نعمت البدعة هذه فسماها بدعة من حيث صورة اثباتها والا فهي سنة بفعل النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاث ليال من رمضان في حياته، ثابت اقامتها بقوله عليه السلام: اني خشيت ان يفرض عليكم. فنبه على العلة ليشعر بثبوت الحكم عند ارتفاعها كما اثبته عمر رضي الله عنه باجماع من الصحابة في قبوله فان قلت كيف تكون البدعة المكروهة ضلالة مع ان المكروه من قبيل الجائز والنبي صلى الله عليه وسلم قد حكم على كل بدعة بانها ضلالة؟ قلت الكراهة مصروفة للعمل بها، وإحداثها حرام لانه افتيات على الشارع وتقدم بين يديه وتغيير لاحكامه مع وجود شبهة منه.

ثم من خواص البدعة ثلاثة:

احدها انها لا توجد غالبا الا مقرونة بمحرم صريح او آيلة

اليه، او يكون تابعا لها، ومن تأمل ذلك وجده في كل ما قيل فانه لا ينخرم بحال كما ننبه عليه ان شاء الله تعالى.

الثاني انها لا توجد غالبا الا في الامور المتسغربة غير المالوفة في الدين وهي في الكيفيات من المندوبات وتوابع الاعمال وما تميل اليه النفوس وتستحسنه كالذكر والتلاوة والصلاة والصوم بما يدخلون عليها من الكيفيات ونحوها والسلوك ونحو ذلك فتأمله.

الثالث انها لا توجد غالبا الا مستندة لوجه من الشريعة او معنى من الحقيقة يلتبس على قليل العلم فيتحير او يسلم ويتروج على الجاهل فيظنه دينا قيما من حيث لا يعلم، وما غره في ذلك الا شبهة الاصل وتسليم من يعتقد فيه العلم والفضل. ولكن لكل شيء ميزان يظهر به الحق من الباطل يعرفه العالم وينفيه الجاهل فيكون ضالا بفعله مضلا بدعوى الخلق اليه غير معذور في امره لعدم تبصره اذ الدين مبني على التبصر وبالله التوفيق».

ولا يخفى تحرير هذا الفصل وانه على اختصاره جمع بين تحقيق النظر في معنى البدعة وتقسيمها الصحيح الى قسميها الطبيعيين: الحرمة والكراهة ولم يجار اصطلاح الفقهاء في عصره على تقسيمها الى اقسام الحكم الشرعي الخمسة وان بين وجهة نظرهم في ذلك التقسيم ودليله ثم عرض لما يتوهم من ان البدعة

المكروهة لا حرج فيها فبين ان الكراهة انما تتعلق بالعمل بها واما اصل احداثها فحرام وبذلك حسم المادة في امر الابتداع واغلق الباب في وجه المبتدعين ومن ثم تخلص الى الكلام على خواص البدعة بما لم يدع في امرها اشتباها وهكذا حرر هذا الفصل تحرير الجوهر وركزه تركيزا موعبا بحيث جمع فاوعى.

وهاك فصلا آخر بين فيه الاسباب التي تدعو الى الابتداع وخاصة في الطريق وهو نظير سابقه تحريرا وتركيزا، قال:

« (فصل) في اصل ظهور مدعي التصوف في هذا الزمن بالبدع واتباع الناس لهم عليها. فاما ظهورهم بالبدع فله اصول ثلاثة؛ اولها نقص الايمان لعدم العلم بحرمة الشارع وفقد نور الايمان الهادي الى اتباع الرسول عليه السلام قال الله تعالى وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وقال احمد بن حضرويه رضي الله عنه الله الدليل لائح والطريق واضح والداعي قد اسمع فما التحير بعد هذا الا من العمى وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه في حكمه لا يخاف عليك ان تلتبس الطرق عليك وانما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك وقال ايضا تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال قال بعضهم نحت الجبال بالاظافر أيسر من زوال الهوى اذا تمكن قال الله

تعالى افرايت من اتخذ الاهه هواه واضله الله على علم الآية وقوله تعالى فمن يهديه من بعد بالله يعني ان الحيل والاسباب لا تفيد في هدايته لتمكن الباطل من نفسه وفقدان نور الايمان من قلبه ومن لم يجعل الله له نور فما له من نور.

الثاني الجهل باصول الطريقة واعتقاد ان الشريعة خلاف الحقيقة وهذا هو الاصل الكبير في ذلك وهو من مباديء الزندقة ومنه خرجت الطوائف كلها وصار الفروعي الجامد لا يتوقف في سب الصوفية، والمتصوف لا يتوقف في النفور من العلم وأهله ويخالف ظاهر الشريعة في امره ويرى ذلك كمالا في محله حتى لقد سمعت من بعض من تفقر من طلبة الوقت انه سمع حكاية من حكايات الخارجين او جبت اثراً في الوجود فنطق ناطق زندقته وجهله بان قال ظاهر الشريعة حرمان، وهذا والعياذ بالله كفر وضلال انجر له من جهله بالطريقة واعتقاده الفرق بين الشريعة والحقيقة، وهذا هو الاصل الذي بنى عليه المارقون اصولهم واستظهرت الطوائف باعمال خارجة عن الدين وأحوال موافقة للمارقين فحمل الصادق على الكاذب والمصيب على المخائب، ووقع الكل في جهالات لا يمكن تفصيلها ولا ينضبط تأصيلها ودفع ذلك لا يكون الا بتقرير اصول القوم وسنفرد له فصلا بعد ان شاء الله.

الثالث حب الرئاسة والظهور مع الضعف عن اسبابها والقصور فيضطرهم ذلك لاحداث امور تستميل القلوب لكونها مجبولة على استحسان الغريب مع جهلها بما يشين ويريب وحرصها على الخير وظهور هذا الشخص بصورة ذلك وحقائق منه مع ما يجري على يديه من خوراق شيطانية او يبدو لتابعيه من لذة نفسانية او يدركه من اذواق طبيعية يظنها فتوحات وأسباب وصول فينبذ لها الفروع والاصول مع ما يعينه على ذلك من احتقار الامور المألوفة واعتقاده ان المقام العجيب لا يدرك الا بالامر الغريب وان العبادة في صورها ووجوهها لا تفيد المقصود الا باضافة امر اليها فينقاد لذلك عند ظهوره ويعمل به فيجتهد الامر له بذلك ويتقوى عليه بما ظهر له من ذلك وما هو الا الجهل والانقياد للوهم وعدم التثبت والفهم نسأل الله السلامة بمنه وكرمه».

وهذه جمل من فصول منه تبين نظره في أشياء مما ضلت فيه آراء القوم، فمن ذلك قوله في المهدي المنتظر:

«هذا مع ان كثيرا من العلماء يقولون بان الفاطمي قد انقضى زمانه وانه عمر بن عبد العزيز او غيره على اختلافهم في ذلك، والحق ان الامر فيه مبهم وان الاشتغال به مما لا ينبغي لاشتباه الامر واضطرابه مع عدم الاضطرار اليه. وهب انه نزل بباب المدينة

التي انت فيها أليس في عنقك بيعة اميرها فلا يحل لك الخروج عنه ولا الخروج اليه لما في رقبتك من حق اميرك، هذا ان تحقق فما ظنك والامر متوهم الصحة في اصله غير متحقق التأخير في وقوعه».

ومن قوله فيه، في نسبة الفقه من التصوف: «قالوا وما مثل الفقيه الا كبواب الملك والصوفي المحقق صاحب سره فاذا حدث الصوفي عن خبايا بيت الملك نادى عليه الفقيه انما انت سارق او كذاب او متجاسر، فان اتى بأمارة من الملك والا فحجة البواب عليه قائمة وانكاره صحيح، فمن ثم صح انكار الفقيه على الصوفي ولم يصح انكار الصوفي عليه فاعرف ذلك».

ومن قوله في كتب الحاتمي ومن على شاكلته في أحد الفصول منه «فاما كتب الحاتمي وابن سبعين وابن الفارض وابي العباس البوني ومن جرى مجراهم فلها رجال، لهم في الحقائق مجال، وعندهم في التمييز مقال، فلا يشتغل بها في البداية الا غوي ولا في النهاية الا خلي ولا في التوسط الا ذكي ياخذ بما بان رشده ويسلم ما وراء ذلك ليسلم من آفاته وما هو الا كما قيل:

من تحلى بحلية ليس فيه فضحته شواهد الامتحان

اعاذنا الله من البلاء بمنه».

ومثل قوله في احزاب ابن سبعين ودعوات البوني في احد فصول الكتاب ونصه:

«(فصل) في امور اولع بها بعض الناس وفيها مغمز ما، منها احزاب الشيخ ابي محمد عبد الحق بن سبعين وهي محتوية على حقائق ودقائق وامور عالية بعبارات فائقة وشقاشق عظيمة بعضها في الاضمار وبعضها خارج عنه، فلذلك وجب على الضعفاء اتقاؤها وكان التسليم فيها اولى من العمل بها الا حزب السلام له وفيه ما فيه للعدول عن الالفاظ الشرعية الى عبارات اخرى لا ندري ما قصد بها ان لم يكن الايقاع في النفس، وبالجملة فذلك واقع له بحسب حاله ومقامه ونحن لا ناخذ الا ما جمع العبودية والادب والتأثير لا غير ذلك فافهم. ومنها دعوات البوني واقسامه المرتبة على الساعات وغيرها وقد نص العلماء على ان ذلك بدعة مكروهة ويعنون للعالم به فاما غيره من الجهال فلا حديث عليه وهو ممنوع منه بكل حال».

ومن هذا القبيل قوله في كتب الصلوات المعروفة من فصل آخر: «ومن ذلك تصنيف بعض الناس في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بكيفيات يعتمدها وياتي فيها بالفاظ مستغربة وانواع منتخبة تالفها نفوس العوام وتتحرك بها نفوس الغافلين للصلاة عليه صلى

الله عليه وسلم في الجملة. والاولى باهل التوجه الاقتصار على الالفاظ الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فان الخير كله في الاتباع والفتح الكامل في التقيد بالفاظه عليه الصلاة والصلام فلا تعدل بها شيئا ولو قلت فقليلها كثير ومعناها كبير».

واخيرا استمع اليه فيه وهو يحذر اتباعه من الاقتداء به في امور ربما صدرت منه عن غير تعمد ولا اصرار، ولكن النصيحة التي جعلها هجيراه وهضم النفس الذي هو ديدنه امليا عليه هذه الجملة: «وما زلت احذر الاصحاب من الاقتداء بي في خمسة امور:

احدها - العمل بالسماع واقبحه في عيونهم.

الثاني - التوسع في الاكل صفة ومقدارافان ذلك اساءة ادب.

الثالث - مخالطة كل احد ومباسطته وذلك هجنة وقلة مروءة.

الرابع - كثرة المزاح والانبساط والتوسع في الكلام لانه يجر الى الشر والنقص.

الخامس - النظر في كتب الرقائق والعمل عليها دون غيرها.

فاني لا افعل ذلك والله عن رؤية ولا اختيار وما كتبت التحذير منه ها هنا الا ليلا اجعل حجة فيه وبالله التوفيق».

هذه فصول ونقول من كتاب عدة المريد تقفك على اهميته وتتعرف منها آراء زروق في المسائل الصوفية الدقيقة. وهي آراء

موزونة بميزان الشرع ترد الى التصوف الاسلامي اعتباره وتعود به سيرته الاولى التي كان عليها في عهد الجنيد وطبقته من الصوفية الاخيار. وقد احتوى كتابه قواعد التصوف الذي يعد حجة في هذا الباب على كثير من هذه الآراء التي نظن انه جردها من كتابه الاول واودعها في القواعد كما احتوى على حقائق اخرى لها اهمية كبيرة في الموضوع. وتتميما للفائدة نورد بعضها هنا فمن ذلك قوله:

«(قاعدة) الفقه حكم عام في العموم لان مقصوده اقامة رسم الدين ورفع مناره واظهار كلمته وحكم التصوف خاص في الخصوص لانه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك، فمن ثم صح انكار الفقيه على الصوفي ولا يصح انكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف الى الفقه والاكتفاء به دونه ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه اليه الا به وان كان اعلى منه رتبة فهو اسلم واعم منه مصلحة ولذلك قيل كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها وصوفي الفقهاء اكمل من فقيه الصوفية واسلم لان صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالا وعملا وذوقاً بخلاف فقيه الصوفية المتمكن من عمله وحاله ولا يتم له ذلك الا بفقه صحيح وذوق صريح لا يصح له احدهما دون الآخر كالطب الذي لا يكفي علمه عن التجربة ولا العكس فافهم».

ومنه قوله «(قاعدة) تحديد ما لم يرد في الشرع تحديده ابتداع في الدين لا سيما ان عارض اصلا شرعيا كصيام يوم لفوات ورد ليلته الذي لم يجعل له الشارع كفارة الا الاتيان به قبل صلاة الصبح او زوال اليوم وكذا قراءة الفاتحة قبل الصلاة وتوقيت ورد الصلاة ونحوه مما لم يرد من الشرع نص فيه لا ما ورد فيه نص او اشارة كصلاة الرواتب واذكار ما بعد الصلاة وقراءة القرآن وصيام النفل ونحوه فافهم».

ومنه قوله: «(قاعدة) لا يشفع عند الله احد الا باذنه وقد امر بابتغاء الوسيلة اليه قيل هي لا اله الا الله وقيل اتباع رسول الله وقيل اتباع في العموم فيتوسل بالاعمال كأصحاب الغار الذين دعا احدهم بأفضل عمله وبالاشخاص كتوسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه في استسقائه وجاء الترغيب في دعاء المرء لاخيه مطلقا وقال عليه السلام لعمر رضي رضي الله عنه حين ذهب لعمرة له اشركنا في دعائك يا أخي وذلك للتعليم والا فهو عليه السلام وسيلة الوسائل واساس الخيرات والفضائل وقد روي عن مالك لا يتوسل بمخلوق اصلا وقيل الا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا كما قال ابو بكر بن العربي في زيارة المقابر لا يزار لينتفع به الا قبره عليه السلام».

وقوله منه : « (قاعدة) لا علم الا بتعلم عن الشارع او من ناب منابه فيما اتى به اذ قال عليه السلام انما العلم بالتعلم وانما الحلم بالتحلم ومن طلب الخير يوته ومن يتق الشر يوقه، وما تفيده التقوى انما هو فهم يوافق الاصول ويشرح الصدور ويوسع العقول ثم هو منقسم لما يدخل تحت دائرة الاحكام ومنه ما لا يدخل تحت دائرة العبارة وان كان مما تناوله الاشارة ومنه ما لا تفهمه الضمائر وان أشارت اليه الحقائق مع وضوحه عند مشاهده وتحقيقه عند متلفيه وقولنا فيه فهم لاثبات اصله لا غير فاعرف ما اشرنا اليه وبالله التوفيق» .

ومن شذراته القيمة قوله في شرح المباحث الاصلية تعليقا على قولهم من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق : «قلت تزندق الاول لرفضه الحكمة والاحكام وتفسق الثاني لخلوه من صدق النية فيما هو به والعمل به وتحقق الثالث لقيامه بكل في محله فمرجع كلام الصوفية في كل باب لاحوالهم والا فلا تنافي بين اقوالهم لمن تأملها وذلك خلاف مذاهب غيرهم فمذاهب الغير يتسلط عليها الابطال ومذهب القوم يرجع الى وفاق الحال فان لم يقبل ذلك فليس من مذاهبهم »

ومنهـا فيه ايضا: « (تنبيه) الذي ينبغي ان يجزم به في هذا الزمن منع الخـرق والدخول عليهـا مما عليه النـاس من الشـح والاعتلال في الغالب واذا كان الغـدر في النفوس طبعا فالثقـة بكل احد عجـز »

ومنهـا فيه ايضا وقد اورده فـي عدة المريد مختصرا: « سئـل شيخنا القورى رحمه الله عن ابن العربي الحاتمي فقال اعرف بكل فن من اهل كل فن قيل له ما سألناك عن هذا، قال اختلف فيه من الكفر الى القطبانية قيل له فما ترجح قـال التسليـم (قلـت) وذلك لان التعرض للتكفير مخطر واظهار المزية ربما ادى الجاهل للاقتداء به في الواقع او لاعتقاد ظاهره والله اعلـم. ومـن هـذا النوع ما تقدم ذكره من جواب الامام محي الدين النووي رحمه الله اذ قال الكلام كـلام صوفـي (وتلك امـة قد خلت لها مـا كسبت) الآية وطولب بعض المغاربة المجاورين بمكة في ضبط معتقده في ابن العربي الحاتمي ليصل بعض القضاة الى عقوبته واذايته لكونه منكرا له ومكفرا فقال اشهدوا اني مومن بـالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وما كـان من كـلام فلان موافقا بظاهره للكتاب والسنة فانا اقـول به وما كان على خـلاف ذلك فانا اكل علمه الى اربابه فلم يجد له سبيلا. ووقفت لابـي زرعـة

العراقي على جواب في شأنه وكذا ابن الفارض ذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم ومال الى انه يعترض على الكلام ويترك القائل لاحتمال توبته ونحوها. وهذا وجه من السلامة ايضا.

والتحقيق في ذلك ان وجه الشريعة مراعي ومعنى الحقيقة ملحوظ وحرمة العالم لا يرفعها غلطه ولا سهوه ولا خطؤه ورتبته من العلم والدين لا ترفع عنه الاحكام فتعتبر عباراتهم من حيث حقائقها بان يوخذ منها ما دلت عليه من المعاني الصحيحة السالمة من الاعتراض وينظر في الالفاظ من حيث ما يقتضيه موجب الحكم في محله فلا يهمل حق الله فيه وحماية الشريعة بالعمل به ولا يتحامل على صاحبه بان هذا مذهبه لان دلائل انتفائه عنه اكثر من دلائل ثبوته وحسن الظن في محله مقدم على سوء الظن والمومن يلتمس المعاذير والمنافق يتبع العيوب وهذا الوجه الذي قلنا اسلم الوجوه واحسنها شرعا وحقيقة وبالله التوفيق».

انتهى وهو كلام نفيس وصدوره من عالم صوفي يزيده نفاسة ولعل غير زروق من المتصوفة الذين اتوا بعده لا يمكن ان يحكي هذا الكلام، وان حكاه فانما ليطعن به في زروق... اما ان يكون له رأى من هذا القبيل في الشيخ الاكبر فهذا هو

الكفر او أكبر وبذلك تعرف مقام زروق في العلم والعمل ورسوخ قدمه في التحقق والتشرع.

ومنها في شرح الحزب الكبير للامام الشاذلي عند قوله (يا من هو هو يا هو) الخ مبينا حكم اطلاق هذا الضمير على الله تعالى ما نصه: «معناه الذي لا يمكن ان يشار لجلالته وعظمته فهو هو، وللناس في هذا الاطلاق بحث وانكار على الصوفية، والتحقيق ان اطلاقه في محل الاثبات المطلق اساءة ادب وفي مقام التعظيم باشعاره واستشعاره وشواهده وقرائنه لا بأس به لاهله».

وتعرض في شرح الوغليسية للحج بالخطوة الشائع ذكره بين اهل هذا الشأن فتسائل هذا السؤال: «وانظر هل يجب على اهل الخطوة (يعني اذا عدمت الاستطاعة) واذا فعل هل يجزيء او لابد من اعتبار فعله عليه السلام؟»

ثم الى جانب هذا الاحتياط المشروع نجد له ارشادا عظيم الفائدة في تمييز كتب القوم لمن يريد ان يتناولها وهو ما اشار اليه في احد شروحه للحكم بقوله: «كتب القوم تحتوي على اربعة انواع (التذكير والوعظ) وهو حظ العوام وللخواص منه نصيب ومواده من كتب ابن الجوزي وبعض تعاليق المحاسبي وشيء من كتب الاحياء والقوت وتحبير القشيري وما جرى مجراها (والكلام والاحكام) اي احكام تصفية الاعمال وتصحيح الاحوال من

واجب وسنة ومندوب وآداب ظاهرا وباطنا وهو حق المتوجهين من كل فريق وبكل طريق ومواده من كتب الغزالي والسهروردي ونحوهما (والكلام على الاحوال) اي تحقيقها وتحقيق المقامات والاذواق والمنازلات وهو نصيب المريدين وربما كان تنبيها او تشويقا لغيرهم ومواده من كتب الحاتمي في المعاملات والبوني في المنازلات ونحوهما وفي رسالة القشيري مواضع من ذلك، وفي الجميع مهاوي فاحذرها لصعوبة فهمها (والكلام على الحقائق) اي المعارف والعلوم الالهامية وهو نصيب العارفين المحققين، وكتاب الحكم محتو على الاطراف الاربعة لا سيما الاخيرين منها فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الالفاظ».

ونظر في القواعد الى هذه الكتب نظرة فنية فصنفها تصنيفا آخر بحسب الاذواق والميول التي تكون لكل فريق ممن يسلك الطريق فقال:

«(فائدة) تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد الاستحسان وحصول الحسن لكل مستحسن، فمن ثم كان لكل فريق طريق فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي ومن نحا نحوه وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في مدخله وللمحدث تصوف حام حوله ابن العربي في

سراجه[1] وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه وللمتريض تصوف نبه عليه القشيري في رسالته وللناسك تصوف حواه القوت والاحياء وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه وللمنطقي تصوف نحا اليه ابن سبعين في تآليفه وللطبائعي[2] تصوف جاء به البوني في اسراره وللاصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه، فليعتبر كل بأصله من محله وبالله التوفيق».

ونظن ان هذا الاستعراض السريع لآرائه في التصوف والصوفية واحكامه على اعمال القوم ومنازلاتهم يكفي للدلالة على صدق من لقبه بمحتسب العلماء والاولياء واصابته في هذا اللقب.

وكان بودنا ان نستوعب كل ما تخيرناه من كتبه واستوقف نظرنا من ابحاثه وما استحسناه من رسائله الجامعة الى اخوانه ومريديه، ونعقد بحثا للكلام على طريقته الفقهية وتآليفه في هذا العلم فانه كان علما من اعلامه ومقامه فيه كمقامه في التصوف ياخذ ويعطي ويقبل ويرد، ويستشهد بأقوال غير المالكية من علماء

---

1) لابن العربي سراجان؛ سراج المهتدين وهو من منحى شهاب القضاعي، وسراج المريدين ولعله المراد هنا.

2) يعني بالطبائعي صاحب علم اسرار الحروف وطبائعها المتصرف في عالم الطبيعة بها وبما تركب منها من الاسماء على حسب مذهبهم في ذلك.

المذاهب الاخرى مما يدل على سعة افقه وكثرة اطلاعه، ولكن خوف الاطالة والخروج عن المعتاد في هذه التراجم جعلنا نكتفي بما تقدم ونقف عند هذا الحد في التعريف بعبقرية الرجل والدلالة على مكانته العلمية الكبيرة.

ثم نختم بهذه السانحة الصوفية الجميلة من سوانحه، التي كانت محل انتقاد من الشيخ ابن عجيبة على ما سبقت الاشارة اليه وهي قوله: «طفت مشارق الارض ومغاربها في طلب الحق واستعملت جميع الاسباب المذكورة في معالجة النفس بقدر الامكان في مرضاة الحق فما طلبت قرب الحق بشيء الا كان مبعدي، ولا عملت في معالجتها بشيء الا كان معينا لها، ولا توجهت لارضاء الخلق الا كان غير موف بالمقصود ففزعت الى اللجأ اليه عز وجل في الجميع فخرجت بفضل ذلك علة رؤية الاسباب ففزعت الى الاستسلام فخرج لي منه رؤية وجودي، وهو رأس العلل، فطرحت نفسي بين يدي الحق سبحانه طرحا لا يصحبه حول ولا قوة فصح عندي ان السلامة من كل شيء بالتبري من كل شيء والغنيمة من كل شيء بالرجوع الى الله في كل شيء اعتباراً بالحكمة والقدرة وقياما مع الطباع بشواهد الانطباع، ولما يرد منه تعالى امراً ونهياً وخيراً وقهراً وعبودية لا تصحبها رؤية، ورؤية لا يصحبها اعتماد واتساعاً

لا يصحبه ضيق وضيقا لا يصحبه اتساع ممتثلا في ذلك قول القائل:

قد كنت احسب ان وصلك يشترى ... بنفائس الاموال والارباح
وظننت جهلا ان حبك هين ... تفنى عليه كرائم الارواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من ... تختاره بلطائف الامناح
فعلمت انك لا تنال بحيلة ... فلويت رأسي تحت طي جناحي
وجعلت في عش الغرام اقامتي ... فيه غدوي دائما ورواحي ...»

ولعل ما نقلناه من اقواله في الانكار على اهل الدعاوي العريضة وردوده لما يصدر عن القوم في شطحاتهم من الكلمات الناشزة عن منهاج الورع هو وحده كاف في رد هذه القصيدة التائية التي ذكر الشيخ احمد بابا جملة منها في تكميله للديباج وذكرها كلها ابن مريم في بستانه، لانها مما يخالف طريقته واعتقاده وهضمه لنفسه واهداره للدعاوي بالكلية. ونظن ان احد أتباعه المغرورين هو صاحبها وضعها على لسان الشيخ تنفيقا لها وتدليسا على الضعفاء. وكم لذلك من نظير. نعم لا نضع القلم من يدنا حتى نروي لزروق رحمه الله هذين البيتين من نظمه، وقد ذكرهما في كتابه عدة المريد:

هذا التصوف علم ليس يدركه ... الا ذكي الحجا بالجود موصوف
يرضى القليل من الدنيا ويبذلها ... عند الوجود بتقوى الله معروف

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 073553222
(NEC)
BP80
.Z37
G366
1954

أحمد زروق